

على الرغم من أن الشاعر يبدأ تجربته الجمالية من الحواس المباشرة التي تأخذ من عناصر الواقع الملموس، إلا أن الشاعر لا يقف عند حدود هذه المعطيات الأولية، بل يتجاوزها إلى طاقاته ومخزوناته النفسية والثقافية والحضارية والتراثية في آن واحد، إننا أمام ظاهرة معقدة تسمى الشاعر، وأمام ظاهرة أكثر تعقيدا هي علاقاته ومكوناته وطاقاته، وكلها تصب في النص الشعري، كما تمثل هذه السياقات جميعا تراثا خاصا للشاعر<sup>(1)</sup>.

وعلى هذا، فإن الدخول في عالم النص الشعري الدراجي لا يأتي قبل المرور ببواباته، مثلما لا نلج الدار إلا من أبوابها، لأن هذه البوابات من شأنها أن تقوم لدى القارئ بدور الوشاية والبوح وتضع بين يديه بعضا من مفاتيح النص الشعري، فتساعده في ضمان قراءة سليمة لذلك النص، وفي غيابها قد تعتري قراءة النص بعض الاضطراب والتشويش.

لذلك قد يكون من المهم لمقاربة ديوان ابن دراج القسطلي مقارنة تناصية أن نتوقف أمام ترجمة حياة الشاعر، لأن ذلك من شأنه أن يساعدنا ولو جزئيا على التعرف على بعض الشروط التاريخية والذاتية التي جعلت تجربة هذا الشاعر متفردة، هذا لما له من أهمية في تشكيل الخلفية النصية لأشعاره وقصائده وخروجها في الشكل الذي بدت لنا فيه.

فالتعرف على الشاعر من خلال حالته النفسية، وظروفه الاجتماعية، والبحث في الروافد التي شكلت شخصيته يأتي من الأهمية لقراءة نصوصه، ذلك "لأن العمل الأدبي يتحرك حركة ذاتية خاصة، وفي إطار عام هو إطار ثقافة صاحبه، ولذلك مهما قيل أن مادة العمل الأدبي توجد في تاريخ الشاعر، بل تنبع من العمل ذاته فإن بيئة النص تحمل كثيرا من ميول الفنان وانطباعاته، وتجاربه في الحياة"<sup>(2)</sup>.

## أ- حياة ابن دراج:

(1)- مدحت الجيار، الشاعر والتراث، دراسة في علاقة الشاعر العربي بالتراث، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، 1995، ص 20.

(2)- محمد عصام الشمطي، الجمالية والواقعية في نقدنا العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، لبنان، 1979، ص 213

يعرف بابن دراج، ويلقب بالقسطلبي، ويسمى أحمد، ويكنى أبا عمر، واسمه الكامل أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج<sup>(1)</sup>.

أما أسرة ابن دراج - كما يشير لذلك محقق ديوانه- بشهادة كثير ممن ترجموا له أسرة نبيلة مرموقة الشأن، حتى أن بلده قسطة كانت معروفة في كتب الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين باسم (قسطة دراج) تداول جده الأعلى وبنوه على رياستها<sup>(2)</sup>.

وقد كان بنو دراج ينتمون إلى قبيلة صنهاجة البربرية، ويرجع دخولهم الأندلس إلى بدايات الفتح مع طارق بن زياد (92هـ). وإن كان لا ترى في شعره إلى ما يشير إلى نسبه البربري، ولعل هذا يرجع إلى أن البربر من سكان شمال إفريقيا الذين دخلوا الأندلس مع الرعيل الأول من الفاتحين المسلمين لم يستقروا في هذه البلاد حتى اندمجوا وتأقلموا بسرعة مذهلة في المجتمع الأندلسي اندماجا كاملا.

ولد ابن دراج في (قسطة دراج) في شهر محرم سنة 347هـ (مارس 958م)<sup>(3)</sup> أي في السنوات الأخيرة من خلافة عبد الرحمن الناصر الذي حكم بين سنتي (300-350هـ) وقضى فترة تعليمه في السنوات التي وافقت خلافة الحكم المستنصر (350-366هـ) وجانبا من خلافة ابنه هشام المؤيد.

ولم يتعرض من ترجموا له في القديم، لنشأته الأولى، كطفولته، وصباه وشيخوخته، ولكن محقق الديوان يذكر أنه تردد على مكاتب الشيوخ في جيان، في فترة مبكرة من حياته، وحفظ القرآن الكريم، وألم بمبادئ اللغة والنحو والأدب، والأخبار والأنساب، ولا يستبعد قيامه بعده رحلات إلى قرطبة - وهو في غضاضة الصبا- وإطلاعه على جوها الأدبي والالتقاء بشعرائها<sup>(4)</sup>.

ويرى أحمد هيكل، أنه نشأ نشأة أدبية، وتزود بثقافة لغوية وتاريخية، وأقبل بنوع خالص على شعر الجاهليين والإسلاميين، وفتن بالاتجاه المحافظ الجديد، ذلك الاتجاه الذي وصل

---

(1)- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الموسوعة الشعرية (CD)،المجمع الثقافي، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ، الإصدار 2 ، 2001.

(2)- محمود علي مكي، مقدمة ديوان ابن دراج القسطلبي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1389هـ، ص 12.

(3)- مقدمة الديوان، ص 23.

(4)-مقدمة الديوان، ص 26.

إلى قمته في القرن الرابع الهجري، حيث انتهت زعامته في المشرق إلى الشاعر أبي الطيب المتنبّي، وفي الغرب إلى الشاعر ابن هانيّ الأندلسي<sup>(1)</sup>.

ولا شك أن شاعرنا، قد أفاد من بيئته، وطبيعة عصره، في تكوين فكره وثقافته، فمنطقة جيان التي تقع فيها بلدة الشاعر، كانت بيئة أدبية خصبة، أنجبت كثيرا من الشعراء قبل ابن دراج منهم يحيى بن الحكم الغزال (156-250هـ)، الذي تألق قبل فترة الخلافة أيام عبد الرحمن الناصر.

وتعد فترة الخلافة (300-366) من أخطر الفترات في حياة ابن دراج، فهي فترة تكوين ثقافته، وتشكيل فنه وفكره، وكان لمولده ونشأته في تلك البيئة التي خبت ثمار أبي علي القالي، ورحلات الأندلسيين إلى المشرق العربي أثر عظيم في شعره، وتكوين ثقافته وفكره، ولا شك أن ابن دراج أفاد من معطيات عصره وبيئته المزدهرة بالأدب والتاريخ واللغة. وأنه اطلع على تلك الآثار العلمية والأدبية، الشرقية والأندلسية، وأعجب بالفحول من الشعراء أمثال: أبي نواس، وأبي تمام، والمتنبّي وهضم من أشعارهم، وتمثلها في شعره<sup>(2)</sup>.

ولما أحسّ شاعرنا في نفسه القدرة على الإبداع، والتّمكّن من فن الشاعرية تطلعت آماله إلى قرطبة عاصمة الأندلس بقصد الظفر بالقرب من المنصور بن أبي عامر الذي اشتهر بالعطف على الشعراء وتقريبهم منه، وكان ذلك سنة 382هـ. وبدأت مرحلة جديدة من حياته، وقد كان عندئذٍ في غضاضة الشباب إذا ما قيس بمن كان في بلاط المنصور من فحول الشعراء وخضارمتهم، ويكفيه أنه استطاع أن يلفت إليه أنظار الجميع، فأقبلوا يتساءلون: من أين نجم عليهم هذا الشاب الناشئ الذي أتى يزاحم جملة الشعراء الواقفين على باب المنصور؟ واستطالت السنة السوء: أترأه منتحلا لشعر غيره ملتبسا بغير ثوبه<sup>(3)</sup>؟

ولقد استطاع شاعرنا في ظل العامري أن يثبت مقدرته الشعرية وكفاءته الفنية بعد أن اجتاز عقبة اتهامه بالانتحال والسرقة، فظفر بالقرب من أبي عامر، ونعم برضاه، ومكث في بلاطه حتى وفاة المنصور سنة 392 "وشعر القسطلي في الدولة العامرية، يعتبر أروع ما

(1) أحمد هيكّل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط13، دت، ص 303.

(2) المرجع نفسه، ص 305.

(3) -مقدمة الديوان، ص31.

نظم وأحقه بالتقدير، ولاسيما ما توجه به من مديح إلى المنصور، والذي يقرأ شعر ابن دراج في القائد العامري لا يملك تفكيره من أن يثب إلى مدائح المتنبي لسيف الدولة، فهو مدح لا يقوم فقط على الطمع والرغبة... وإنما المصدر الأول فيه هو شعور قوي من الإعجاب بشخصية الممدوح...<sup>(1)</sup>

وقد عاصر ابن دراج الفتنة القرطبية 399هـ، إذ كان قد تجاوز الخمسين عندما شبت، وتركت أثرا عظيما في نفسه وشعره، وحوالته "إلى متسكع على الأبواب، هارب من أشباح الجوع، ينقل معه أولاده حيثما انتقل"<sup>(2)</sup>

وأخيرا استقر به المقام في بلاط التجيبين ملوك سرقسطة، وقد قدم على منذر بن يحيى التجيبي، واستعاد في ظله عهده بالمنصور، وعاش في كنف يحيى بن منذر كعهده مع والده، ليضطر بعدها إلى ترك جوار التجيبين، متوجها إلى خيران العامري، سنة 419هـ أين قضى عنده ما تبقى من أيامه.

وتنتهي بذلك حياة شاعرنا، بعدما تقلبت به الأمور، ما بين بؤس وقلق في بداية حياته، ثم نعيم واستقرار في ظل المنصور العامري، ثم عود إلى التغرب والتشرد، والشكوى في ظل الفتنة القرطبية، وقد جاء شعره مصورا لتلك المراحل التي مرّ بها خير تصوير.

## ب - شخصية ابن دراج:

ويمكن تحديد العناصر التي ساهمت في تشكيل شخصية الشاعر ابن دراج القسطلبي في عناصر نفسية وأخرى ثقافية.

لقد كانت أخلاق ابن دراج على كثير من الاستقامة والبعث عن التحرر الذي كان يتورط فيه كثير من معاصريه، فلا تجد في أخباره، ولا تلمس في شعره لهوا ولا مجونا ولا تحررا، بل

(1) - مقدمة الديوان، ص38.

(2) - إحصان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الشروق، عمان، الأردن، ط2، ص 213.

على العكس من ذلك، إذ يؤكد شعره أنه كان على كثير من الجد والحساسية المسببين لشيء من الحزن والأسى.

على أن أبرز ملامح شخصية ابن دراج إحساسه العميق بالأسرة وتعلقه الشديد بالزوجة والأولاد، وهو ما يتضح بشكل ملفت للنظر، فقارئ شعره يطالع ألوانا مختلفة من الحديث عن الزوجة والأولاد والبنات في وداعهم ورحيلهم وحاجتهم وضياعهم، وثقل مسؤوليتهم، وشدة الإحساس بمطالبهم» وهذه ظاهرة لا يشاركه فيها شاعر عربي آخر، ولعل من أسباب ذلك تلك الظروف الخاصة التي أحاطت بابن دراج، من شدة حساسيته، إلى قسوة أيام الفتنة عليه، إلى كثرة هؤلاء الأولاد أخيرا... ولكثرة ذكر الأبناء والأهل... يمكن أن نطلق على هذا الشاعر الأندلسي "شاعر الأسرة" أو "شاعر الحب الأسري"<sup>(1)</sup>.

ومن الملامح النفسية في شخصية ابن دراج شعوره الدائم بالحاجة إلى الأمن والرغبة أبدا بضرورة الاستقرار، وفزعه الشديد من التشتت والتشرد والغربة، ولم يكن هذا الإحساس وليد الفتنة، بل هو إحساس قائم لدى الشاعر، وتجدر الإشارة إلى أن تجربة الغربة والتشريد عند ابن دراج، كما تشير الباحثة فاطمة طحطح، ليست مجرد خيالات وتهويمات شعرية، كما نجد في الأشعار الحديثة، لكنها تجربة حقيقية عاشها الشاعر على مستوى الواقع و مستوى الشعر، بحيث تكاد التجربة الشعرية تطابق الحياة، فليس هناك انفصال كبير بين حياة الشاعر وشعره<sup>(2)</sup>.

ومن الملامح الثقافية في شخصية ابن دراج ثقافته الإسلامية الواسعة التي يأتي القرءان الكريم من أشد عناصرها تأثيرا في شخصيته، فلا يخطئ الناظر في شعره أن يلحظ كثرة اقتباساته للتعبير القرآني، إضافة إلى توظيفه للحديث النبوي الشريف والفقهاء الإسلامي.

كما غذى الشاعر انتماءه الأندلسي وأصله المحفوظ باطلاعه الواسع على الثقافة العربية خاصة ما تعلق بالشعر واللغة من خلال معارضاته العديدة لجملة من الشعراء أمثال أبي

(1) - أحمد هيك، دراسات أدبية، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1980، ص 259-290.

(2) - فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993،

نواس والمنتبي... وتوظيفه لبعض الطرق والقواعد النحوية، هذا إلى جانب التاريخ، حيث  
يكثُر من الإشارة والإحالة والتلميح إلى الشخصيات والحوادث التاريخية.

وهكذا تتكشف لنا شخصية شاعرنا ابن دراج القسطلّي وشعره، من خلال ذلك النزوع  
القوي إلى الإفادة من مصادر الثقافة العربية والإسلامية التي شكلت بدورها الخلفية الثقافية  
والمادة العلمية التي أسهمت في صناعة النص الشعري الدراجي، فجاء نصه على ذلك  
كفضاء يتسع لجمع من النصوص ذات المنابع والمصادر المتنوعة. وقد ولد على هذا  
الانفتاح تداخلا نصيا بين تلك النصوص والنص الشعري الدراجي، وهو ما شجعنا على إثارة  
مفهوم التناص وتطبيقه على مدونة الشاعر.

لكن ما التناص؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في الصفحات الموالية من الفصل الأول.